العنوان:	دراسة التاريخ العربى القديم وأثره على الحضارة الانسانية
المصدر:	مجلة أمل
الناشر:	محمد معروف
المؤلف الرئيسي:	العشاق، على
المجلد/العدد:	مج 9, ع 27
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	2001
الشهر:	مايو
الصفحات:	54 - 61
رقم MD:	409706
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase, HumanIndex, EcoLink
مواضيع:	الفتوحات الاسلامية ، الدراسات التاريخية ، التاريخ العربى ، الحضارة العربية ، الحضارات الانسانية ، التاريخ القديم ، المصادر التاريخية ، الاستشراق والمستشرقون
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/409706

دراسة التاريخ العربي القديم وأثره على الحضارة الإنسانية

علي العشاق*

مقدمـــة

تكمن أهمية التاريخ القديم في كونه الدعامة النظرية لكل ممارسة سياسية واجتماعية واقتصادية معاصرة. وفي محاولة معرفة الماضي الإنساني لاستخلاص العبر أولاً، والوقوف على ما حققته البشرية في سيرورتها التاريخية من تقدم في شتى المجالات التي تتماشى وطبيعة الإنسان(1).

أما الحضارة فهي مختلف أنشطة وسلوك الإنسان التي لا تعتبر أفعالاً انعكاسية فطرية أو غرائزية. وهي تشمل مظاهر متعددة منها اللغة والدين والأخلاق والنظم والعادات والتقاليد القانونية والاقتصادية والاجتماعية والفنون على اختلافها والصناعة وكل ما يجب على الإنسان أن يتعلمه من إخوانه أفراد مجتمعه(2).

انطلاقاً مما تقدم نستنتج أن التاريخ والحضارة مرتبطان أحدهما بالآخر أشد

* أستاذ باحث بكلية الآداب – مكناس.

ارتباط، ولا يستطيع الإنسان أن يتحدث عن الحضارة حديثا معقولا إلا إذا عرف ماهية التاريخ معرفة معقولة(3). لذا كانت دراسة الماضي أساسية لنهوض الدول خاصة وأن التاريخ القديم بوجه عام يشمل القسم الأعظم من تاريخ الإنسان حيث استغرق حوالي 96 % من تاريخ البشرية.

وقد بدأ هذا التاريخ في أقدم ظهوره قبل مئات الآلاف من السنين، أما نهايته فتختلف من منطقة إلى أخرى، وباعتبار الأحداث الهامة التي وقعت في كل منطقة من العالم وغيرت مجرى التاريخ العام.

زمنية التاريخ القديم

ففي الشرق الأدنى ينتهي التاريخ القديم عند الفتح العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي، وانتشار العرب المسلمين في مختلف أرجاء المنطقة ويبدأ التاريخ الحديث مع بداية التاريخ العربي الإسلامي. أما في أوربا فقد عد تاريخ سقوط روما عام 476 م نهاية للتاريخ القديم فيها. وفي المناطق الأخرى من العالم تختلف نهاية التاريخ القديم حسب التطورات التاريخية الهامة في كل منطقة.

ومن التقسيمات الأخرى التي استخدمت للتمييز بين العصور المختلفة التي مرت على الإنسان، تقسيم العصور إلى عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. وقد عد تاريخ ابتداع الكتابة كوسيلة للتدوين حدا فاصلا بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية. وحيث أن تاريخ الكتابة لم يكن في فترة زمنية واحدة في مختلف أرجاء العالم، لذا فإن بداية العصور التاريخية تختلف هي الأخرى من منطقة إلى أخرى تبعا لتاريخ ابتداع الكتابة في المنطقة المعنية. ففي العراق كان اختراع الكتابة أواسط الألف الرابع قبل الميلاد (3500 ــ 2833 قم)(4). وفي مصر كان أواخر الألف الرابع قبل الميلاد(5). بينما في اليونان كان في حدود القرن التاسع قبل الميلاد. وفي الأجزاء الشمالية من أوربا ظلت الكتابة غير معروفة حتى القرن الأول قبل الميلاد.

مصادر التاريخ العربي القديم

إلى غاية القرن التاسع عشر، لم يكن معروفاً عن هذا التاريخ سوى ما ورد في كتاب التوراة والمصادر الكلاسيكية لمؤلفين يونانيين ورومانيين، وما ذكره الرحالة والسياح الأوربيين الذين أتوا للشرق الأدنى في زيارات متعاقبة منذ القرن الثاني الميلادي فصاعدا، أو ما كان رائجاً من أساطير وخرافات تحكي أحداث المنطقة ويتعلق أغلبها بالجانب العقائدي لسكان بلاد الشرق الأدنى القديم.

ولم تبدأ التحريات الأثرية ببلاد الشرق الأدنى إلا عام 1842 وكانت هذه البداية مرحلة تنقيبات الهواة التي تميزت بالنبش والحفر المشوش البعيد عن الأساليب العلمية المتبعة في علم الآثار. وكان المنقبون في هذه المرحلة قناصل لبلدانهم ووكلاء تجاريين. أما التنقيبات العلمية فلم تبدأ إلا سنة 1889 بالتنقيبات الألمانية بمدينة بابل العراقية(6).

وإذا كانت هذه هي مصادر التاريخ العربي القديم، فإن الحقائق التاريخية لم تصلنا كاملة ولا مطابقة كما وقعت. فقد نقلت إلينا من خلال كتابات وأعمال متعددة قام بها مؤرخون وغير مؤرخين، جلها كانت أوربية وبقيت إلى عهد قريب (القرنين الأخيرين)، حيث كان لمجموعة المؤسسات الفكرية والجامعية الغربية دور الريادة ولا يزال في الكشوفات الأثرية في المنطقة العربية منذ أكثر من قرن وبالضبط مع عهد الاستعمار ــ مع حملة نابليون بونابرت على مصر واكتشاف حجر رشيد وفك رموزه على يد شامبليون العالم الفرنسي ــ مما أتاح لها فرصة كيّ عنق الموروث التاريخي، في جانبيه المادي والروحي والفكري لصالح أطماع استعمارية وصهيونية بالأخص ــ لأن عدداً من الرحالة والأثريين كانوا ممن نذر نفسه لخدمة أهداف الكتاب المقدس(7) ــ وكذلك لتبرير تطلعات الغرب في السيطرة وفي المراهنة على أقليات إثنية تستخدم كحصان طروادة الأسطوري. ويزكي ذلك، انتشار معاهد للآثار الشرقية في عدة أماكن من العالم، هدفها الأول هو البحث عن المواقع التي وردت أسماؤها في التوراة. ومن أبرزها:

1) American Palestine Exploration Society تأسست 1870.

2) American School of Oriental Research تأسست 1900.

3) Ecole Pratique d'Etudes Bibliques تأسست 1892.

4) Deutsche Evaugelische Institut für Altertum Wissenscheft des Heigen Landes تأسست 1902.

5) The British School of Archaeology-Jérusalem تأسست 1919.

المستشرقون والتاريخ العربي القديم

وقد اعتمد علماء الآثار المشتغلون في هذه المعاهد على التوراة كمصدر تاريخي وحيد للعهد القديم، وقد اشتهر منهم ليبرايت وغلوك ورايت. إلا أن جهودهم الأثرية المبذولة بالخصوص في بلاد الشام (سورية ولبنان وفلسطين والأردن)(8)، لم تقدم أي دليل تاريخي يؤكد الأحداث التوراتية، ورغم ذلك ما زالت هذه المعاهد ماضية في رسالتها، حيث تمول كثيرا من البعثات الأثرية في الأراضي العربية، ولكن أعضاء هذه البعثات كثيرا ما أذهلتهم الحقيقة ـ أن حجم المكتشفات الكبير يجعل علم الآثار مستقلا عن الأحداث التوراتية المحدودة. وبهذا تبتعد عن أن تكون أساسا لمعرفة التاريخ. وحتى العلماء اكتشفوا في القرن الماضي أنه لا سبيل لتأكيد أحداث صغيرة وقد تكون خيالية والتي تحكمها العواطف الدينية(9). ومع ذلك نلاحظ أن الكتابات الأوربية حول حضارة الشرق الأدنى القديم (بلاد ما بين النهرين ومصر وسوريا وشبه الجزيرة العربية) جعلت من تاريخ المنطقة تاريخا دوغماتيا وتاريخا مقسما ـ أو ممزقا ـ إلى عدة عصور مرتبة ترتيبا تاريخيا عشوائيا، ولا يوجد رابط حقيقي من صميم التاريخ العربي يربط هذه العصور ببعضها البعض لكي تكون لنا في النهاية تاريخا متكاملا للمنطقة العربية.

فقد حاول الأوربيون إثبات عدم وجود وحدة قومية حقيقية تجمع شعوب المنطقة العربية قديما تأصيلا لفكرتهم الأساسية في تفتيت المنطقة العربية وتجزئتها عن طريق اعتبار الشعوب السامية، كشعوب مستقلة عن العبريين والكنعانيين

والفينقيين والأراميين والعرب والأكاديين، وتواريخ خاصة باليمن مستقلا عن شبه الجزيرة العربية. والهدف من كل هذا كما سبق ذكره هو تأكيد النزعة الإقليمية عند شعوب الشرق الأدنى العربي وتفتيت علاقاتها ببعضها البعض، فإذا كانت المعرفة التاريخية هي من إنتاج المؤرخ (لكن هذا لا يعني أنها خيال صرف أو أنها ملكا خاص له بل إن المادة التاريخية مستقلة عن ذهن المؤرخ) وأن له دور في بناء المعرفة التاريخية "الفرق بين الموضوعي والذاتي مرحلي ومتطور باستمرار في البحث التاريخي كما هو في غيره من البحوث العلمية"(10). فإن المستعمر الأوربي جعل من التاريخ العربي القديم تاريخا مصنوعا يبرز فصله باستعمار البلاد العربية. وأمام تشويهه وتقسيمه بقينا نحن معشر المؤرخين العرب تستأسرنا تقاليد جليلة قد عفا عليها الزمن، وتقوى عليها مهابة العلم الأوربي، فمكثنا عاجزين عن استعمال مكتشفات علم الآثار الحديث وتركناها وقفا على الباحث الغربي والصهاينة، فجاء عدد كثير منا واعتمدوا هذا التاريخ المصنوع عفوا وغفلة أو قصدا واستنامة، فأصبح هذا التاريخ يمثل جانبا من ماضينا الضعيف المخزي، إلا أنه لا يدل على وعينا الحاضر ولا يوافق أملنا في الوثوب إلى مستقبل أليق بنا، فكانت الحضارة العربية أسيرة هذا التاريخ الذي رسم لها صورة غير صورتها الحقيقية وأثر على تطورها وتقدمها ومن بعد على الحضارة الإنسانية جميعها.

فحتى لما تحررت معظم البلدان العربية من الاستعمار التقليدي، وذلك ابتداءا من النصف الثاني من القرن الماضي، بدأ المؤرخون العرب يكتبون عن تاريخ الحضارة العربية، إلا أن تلك الكتابات ظلت محصورة في مواضيع عن الحروب، والأبطال، والملوك، بل طبعته النزعة القبلية الضيقة، مما جعله تاريخا يفتقد الوحدة القومية والتواصل العربي، يربط أجزاء تاريخ المشرق العربي بعضها ببعض من أقدم العصور حتى عصرنا الحاضر. كما نجد كتابات انبهرت وعاشت في السحر الماضي والحنين إليه والاكتفاء به على أنه وحده المثل الأعلى، وعدم

الرغبة في تحطيمه وكذلك النظر إلى الحاضر والمستقبل بأفكار الماضي وسننه وأشكاله ودوافعه دون الانتباه إلى تغيير الظروف وتبدل الأحوال.

شروط إعادة كتابة تاريخ عربي موحد

وإذا كانت هذه العلة الأساسية ــ غياب الرؤية القومية في التاريخ العربي القديم ــ قد أصابت التاريخ العربي، فإن أسبابها تعزى بالأساس إلى :

1 ــ دور الاستشراق في التأثير على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب خلال القرنين الأخيرين، حيث عمل الاستشراق على تقوية النزعات الإقليمية من خلال القيام بكتابة تواريخ مستقلة للشعوب العربية، وتشجيع المؤرخين العرب على تناول تاريخهم تناولا محليا إقليميا. وقد عمل المؤرخون من المستشرقين وأتباعهم على تدعيم النزعات الإقليمية من خلال تفسير التاريخ العربي تفسيرا يقوي انفصال الشعوب العربية عن بعضها البعض ويفتت أصول وحدتها في القديم ويدحض دواعي هذه الوحدة في الحاضر، ومن المعروف أن الاستشراق كحركة فكرية ارتبط بالاستعمار كحركة سياسية عسكرية واقتصادية ــ فقد حاول الغربيون من خلال العلم والفكر تسهيل الاستعمار في العالم العربي الإسلامي(11) ــ عن طرق تطوير الاتجاهات القطرية في تفسير التاريخ العربي القديم.

2 ــ التخلف العلمي ودوره في إهمال دراسة التاريخ العربي القديم. فرغم التقدم الذي عرفه علم التاريخ وعلم الآثار في القرنين الماضيين، ظل التخلف العلمي يطغى على العرب والمسلمين وشكل لهم عائقا أمام الاهتمام وتتبع آثار التاريخ القديم، كما أن عدم توفر المادة العلمية الكافية لإثبات أحداث التاريخ العربي القديم والبرهنة عن أصالة هذا التاريخ، وإعادة كتابته في شكل متكامل يوضح الصلات العضوية الرابطة لشعوب المنطقة العربية قديما وحديثا، ترك التقدم في هذا المجال مقتصرا على الغربيين.

فأمام هذه الوضعية لابد أن تتظافر الجهود العلمية العربية في سبيل الكشف عن آثار شبه الجزيرة العربية وبقية المناطق المجهولة من المنطقة العربية القديمة

بما فيها شمال إفريقيا، وإعادة كتابة تاريخ عربي يتلاءم وطموحات شعوبه، وذلك بالوقوف على الماضي بروح الحاضر والمستقبل حتى يصبح التاريخ حافزا يدفعنا إلى الأمام وينمي قابليتنا ويقوي مقدرتنا على صنع التاريخ الجديد(12) ، إن عادت إليه الأجيال اللاحقة فقرأته ووجدت فيه أسباب العزاء والسلوى، أكثر مما تجد فيه من أسباب التعاسة والبؤس(13). ولن يتم ذلك إلا إذا أخذ بعين الاعتبار ما يلي:

1 ـ توجيه الأبحاث التاريخية والعلمية المختلفة لخدمة هذا الهدف، وتنشئة جيل جديد من الباحثين المتخصصين في علمي الآثار والتاريخ والمدربين على التكنولوجيا الجديدة.

2 ـ التأكيد على الوحدة الحضارية للمنطقة العربية منذ القدم (فترة ما قبل الإسلام: 3000 ق م) والعمل على إثبات صلات القربى بين شعوبها، واستمرارية هذا في التاريخ إلى وقتنا الحاضر.

3 ـ البحث عن خصوصية تاريخية خارجة عن القياسات الأوربية (خصوصية قومية قديمة قدم هذه الحضارة)، تسترشد خطاها من مقومات أخرى يلعب الدين واللغة والعادات ووحدة الأصل دورا كبيرا فيها(14).

4 ـ دراسة الأصول المكتوبة انطلاقا من اللسان والكتابة العربيين، بحيث يمكن أن نبين بوضوح مغزاها التاريخي كروابط حيوية بين شعوب المشرق وحضارته.

5 ـ وضع إطار تاريخي موحد قادر على استيعاب التاريخ العربي بكامله. وتقسيم العصور التاريخية تقسيما جديدا ينطبق على تاريخ الإسلام خاصة.

6 ـ تنقية التاريخ العربي من الإسرائليات وكر البصر في تاريخ العبرانيين لأنه تاريخ مصنوع.

7 ـ الابتعاد عن الكم والانتقال إلى الكيف وذلك باختيار الأحداث التي تركت أثرا حضاريا باقيا(15).

والتأكيد على هذه النقط من شأنه تسهيل مهمة المؤرخ العربي تجاه تحقيق مصلحة الأمة العربية في التاريخ فتبرز استقلالية الأمة العربية من جهة، وفصلها على التاريخ الإنساني العام من جهة أخرى.

وفي نفس الوقت ينمحي أثر الاستشراق على أسلوب ومنهج الكتابة التاريخية لدى المؤرخين العرب، ويعوض إهمال المؤرخ العربي لدراسة تاريخه القديم، بالوقوف عليه وجعله حافزا يدفعه إلى الأمام وينمي قابليته على صنع تاريخ عربي جديد.

الهوامش:

(1) ــ وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ج 1، ترجمة محمد بدران، بإشراف جامعة الدول العربية، 1955.

(2) ــ حسين مؤنس، **الحضارة**، سلسلة عالم المعرفة، العدد الأول.

(3) ــ عمر فروخ، **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه**، طبعة أولى، دار الباحث، بيروت ــ لبنان، 1980.

(4) ــ محمد وحيد خياط، **فجر الحضارة في سومر**، السلسلة التاريخية، ص. 24.

(5) ــ عامر سليمان وأحمد مالك الفتيان، **محاضرات في التاريخ القديم** "موجز في تاريخ العراق ومصر وسوريا وبلاد اليونان والرومان القدم"، بغداد 1978، المكتبة الوطنية.

(6) ــ أحمد سوسة، **حضارة وادي الرافدين بين الساميين والسومريين**، دار الحرية للطباعة، بغداد، 1980.

(7) ــ محمود طالب، **آثار الأردن وفلسطين**، 1977، ص. 8.

(8) ــ **نفس المصدر**، ص. 20.

(9) ــ عفيف البهنسي، انعكاسات على اكتشاف وثائق إبلا التي تعود إلى الألف الثالث قبل الميلاد، **مجلة الفكر العربي**، عدد 52، 1988، ص. 94.

(10) ــ عبد الله العروي، **مفهوم التايخ، المفاهيم والأصول**، ج 2، بيروت، 1992، ص. 317.

(11) ــ محمد خليفة أحمد، الوحدة الثقافية للمنطقة العربية في التاريخ القدم، **مجلة الوحدة**، عدد 42، سنة 1988، ص. 19 ــ 110.

(12) ــ قسطنطين زريق، **نحن والتاريخ**، طبعة 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1974.

(13) ــ حافظ الجمالي، ملاحظات حول التاريخ، **المعرفة السورية**، العدد 170، نسان 1976.

(14) ــ وول ديورانت، **قصة الحضارة**، ج 1، القاهرة، 1955.

(15) ــ عمر فروخ، **تجديد التاريخ في تعليله وتدوينه**، ص. 14.